

الفصل الثانى

الطابع العام لنظريات تفسير الأدب

• التحليل الجزئى

• المشاهدة التكاملية

شهدت بداية هذا القرن أقبالاً شديداً على مناهج الدراسة الأدبية التى جاء بها كل من سانت بييف وتين وبرنتيير، فى القرن الماضى . وهذه المناهج تتجه بشكل عام نحو تحليل الظاهرة الأدبية تحليلاً جزئياً، فالباحث ينظر فى الأجزاء وفيما بينها من علاقات للوصول إلى العوامل الكلية التى تحكم الظاهرة الأدبية .

والنظرة السريعة عبر هذه الدراسات كفيلة بأن تطلعننا على المنطق الذى يوجه هذه الدراسات . ولا يهمننا فى هذه النظرة السريعة أن نقف على النتائج التى أنتهوا إليها، بقدر ما يهمننا كيف توصلوا إليها، فإننا نريد الوقوف هنا على مناهج تلك الدراسات .

١ - وقد حاول سانت بييف (١٨٠٥-١٨٦٨) وضع منهج يقوم على تفسير آثار الأديب على ضوء حياته الخاصة بصورة مفصلة ودقيقة، وقد دفعته نزعته الوضعية إلى البحث فى نشأة الكاتب وفى طباعه الخاصة وفى مكوناته الثقافية والنفسية، وأهتم إلى جانب ذلك بدراسة عاداته وأفكاره، وما عرفه فى حياته من إخفاق ونجاح، ذلك من أجل الوصول إلى إكتشاف العامل الجماعى المشترك الذى يوحد بينه وبين غيره من أدباء بيئته وعصره، أو بالأحرى الخصائص التى تجعله يتسمى إلى نمط أدبى أو فكرى معين .

فالأدباء على رأيه أنماط كأنماط النباتات والحيوانات، يتشكلون وفق طبيعة

الظروف والمؤثرات الخارجية . فالعامل المشترك ، من وجهة نظره يسمح للكاتب أن يندمج داخل فئة أو جماعة أدبية معينة لها خصائص وصفات محددة . ويوجه عام نال العنصر المشترك معظم أهتماماته وكان يركز على الدوام أن يبرزه ويبرز دوره في تشكيل الجانب النفسى والعقلى عند الكاتب .

وقد صادف منهج (سانت ييف) الكثير من القبول لدى عدد من الباحثين الذين اعتبروا ممثلين للإتجاه العلمى لدراسة نفسية الأديب ، وأعتبرت مهاجمة أرائهم فى هذه المرحلة مهاجمة للإتجاه العلمى بوجه عام .

٢- أما هيبولت تين (١٨٦٨- ١٨٩٦) فيوجه أهتمامه نحو تأثير الجماعة على الفن والأدب منطلقاً من نظرية جمالية حتمية تنهض على الأعتقاد بوجود قوانين ضرورية تتحكم فى عالم الفرد وعالم الجماعة ، وتحدد إتجاه التطور لديهما . ومن هذا المنطق نراه يحاول دراسة الفن والأدب بأسلوب العالم الوضعى ، حتى يتسنى له التوصل إلى القانون العلمى الذى يحكم التطور الفنى بدلاً من الأقتصار على تفسير الأثر الأديبى أو الفنى عن طريق عبقرية الفرد المبدع . وقد أستطاع تطبيق منهجه على ثلاث مشكلات جمالية تتمثل فى ماهية العمل الفنى أو الأديبى وتكوينه وقيمه . وكانت نقطة البدء لديه هى تقريره أن الأثر الفنى أو الأديبى ليس واقعة فردية منعزلة ، بل ظاهرة ترتبط بظواهر أخرى تفسرها .

فالأثر الأديبى - فى رأيه - ظاهرة طبيعية تحددها الحالة العامة للعقلية الجماعية ، والعادات والأخلاق السائدة ومجموعة من الشروط المحددة والقوانين الثابتة . والشروط العامة التى تتحكم فى تطور الوقائع الفنية والأدبية ، هى تلك الشروط التى تخضع لها كافة الظواهر الإنسانية (السلالة ، الوسط الاجتماعى ، العصر) . والأثر الأديبى أو الفنى وفق هذا المفهوم يبدو وكأنه ظاهرة طبيعية يتكون فى ذهن الفرد المبدع بصورة تدريجية ، ومن ثم فإنه ليس سوى نتاجاً ضرورياً يلزمنا لفهمه إسناده إلى تلك الشروط التى تتحكم فى عملية تكوينه .

ويقرر تين أن الوقائع المادية أو النفسية لها علل خاصة ، فكل واقعة معقدة إنما تولد من تلاقى وقائع أخرى أبسط منها ، وتتوقف عليها ، لهذا يرى أنه من اللازم أن نبحث عن تلك الوقائع البسيطة فى مجال الكيفيات الأدبية أو الفنية كما نبحث عنها

والشروط التي حددها تين في تحكم الوقائع الفنية أو الأدبية هي مجموع الأفكار الموروثة والأرض والمناخ من ناحية والموامل الاجتماعية والثقافية من ناحية أخرى، وأخيراً كل جوانب الاستقرار والتغير في الحضارة. وتبعاً لذلك إذا أردنا أن نفهم الأثر الأدبي أو الفني كان لزاماً علينا أن نتعرف بدقة على الحالة العامة للروح الاجتماعية والعادات الإخلاقية السائدة في البيئة التي ظهر فيها الأثر.

وهذه العناصر الثلاثة، أعني (السلالة، البيئة، العصر) تحمل من الظاهرة الأدبية كالظاهرة الطبيعية ليست سوى نتاجاً ضرورياً يلزمنا لفهمها أن نردها إلى تلك العناصر الثلاثة. فالظاهرة الأدبية لها علل خاصة تكمن وراء وقائع نفسية ومادية معقدة تولدت في الأصل من وقائع أخرى بسيطة يمكن البحث عنها عادة في مجال الكيفيات المادية.

ومن الجلي أن الشروط التي حددها تين في تحكم الوقائع الفنية أو الأدبية تحمل من مظاهره الأبداع الأدبي أو الفني نتاجاً لمجموعة هذه الشروط وهذه النظرة كما هو واضح تطبع ظاهرة الإبداع بطابع ثابت لا يتفق وطبيعتها.

٣- وأهتم برونتيبيير بإجراء دراسات على الأدب وأنواعه. وقد حاول أن يطبق نظرية التطور على الأنواع الأدبية، فهو يرى أن الأنواع الأدبية تخضع لقانون التطور العام. فالملمحة الشعرية القديمة مثلاً قد تطورت عبر القرون حتى أصبحت ما يعرف في عصره باسم «القصة الثرية» وأن الخطب الدينية التي كان يلقبها في القرن التاسع عشر كبار الخطباء الدينيين قد تطورت، فأصبحت الشعر الغنائي الذي كان سائداً في عصره وهو في هذه التفرقة يستند إلى آراء داروين في طبيعة الكائنات الحية، لذلك نراه يعتبر طبيعة النوع الأدبي كطبيعة الكائن الحي ينمو ويتوالد ويتكاثر، مطوراً من البساطة إلى التعقيد في مراحل زمنية متوالية، حتى يصل إلى مرحلة عظيمة من التطور، فيتهي بها إلى الغناء كما فتت بعض أنواع الحيوانات. وهذا التطور في رأيه يخضع لجملة عوامل ضرورية نابعة أساساً من مؤثرات البيئة والمرحلة التي ظهرت فيها.

والظاهر أن نزعة نحو صياغة علم للتقدم، وحماسه للإتجاه العلمي والتجريبى

والظاهر أن نزعتة نحو صياغة علم للنقد، وحماسته للإتجاه العلمى والتجريبى قد جعلناه يعتقد أن الأنواع الأدبية كالكائنات الحية، غافلاً بذلك الفروق التى توجد لدى كل نوع من الأنواع .

من هذه اللمحة العابرة نستدل على شئ هام ألا وهو أن هذه الدراسات يغلب عليها طابع العلم الوضعى من حيث أن العلم الوضعى يعتبر الظاهرة الأدبية مجموعة من العناصر المركبة تخضع لعدد من الشروط أو القوانين التى تحكمها، لهذا نجد أن هذه الدراسات أو مثيلتها منصرفة إلى إنجاز تفاسير وتحاليل علمية صارمة .

وإذا تساءلنا ومن أين لأصحاب هذه الدراسات هذه النظرة العلمية؟ كان لزاماً علينا أن نبين الفكر الشائع فى القرن الماضى ألا وهو الفكر الوضعى، فنهضة العلوم الطبيعية وسيطرة قوانينها أدى إلى ظهور الفلسفة الوضعية عند أوجيست كونت، كما أدى إلى ما يمكن أن نسميه بالدراسة «الوضعية للأدب». وهذه الدراسة الوضعية تفسر الأدب على ضوء قوانين ثابتة، كقوانين العلوم الطبيعية، والميزة الواضحة فى مناهج هذه الدراسات، هى النزعة التحليلية ذات الطابع التجزيئى .

ونحن نعرف أن مناهج هذه الدراسات، قد لاقت فى البداية قبولاً من الباحثين، لكنها قد واجهت فى النصف الثانى من هذا القرن، أنتقادات عديدة، نتيجة الأخطاء التى وقعت فيها وهى تعالج الظاهرة الأدبية .

ولكن تلك الأخطاء قد نهت عدداً من الباحثين فيما بعد، وجعلتهم يتحورون من النظرة التقليدية لتحليل الظاهرة الأدبية، أعنى إعتبارها مجموعة من الأجزاء تقود الباحث نحو عناصرها الكلية، فسانت بيف فى دراسته لدور المؤثرات الخاصة والعامّة فى حياة الأديب، قد بدأ بدراسة عناصر نشأته ثم طباعه الخاصة ومكوناته النفسية والثقافية، ثم عاداته وأفكاره وتجاربه الشخصية . إلخ . ثم جمع بين هذه الأجزاء ونظر فيما بينها من علاقات وحاول الوصول إلى العوامل الكلية التى تحكم حياة الأديب . بينما الباحث الحديث ينظر إلى الظاهرة الأدبية، من الداخل أو من الخارج - نظرة كلية تبدأ بكافة العناصر التى تكون الظاهرة، والأمثلة على ذلك كثيرة

فى الدراسات الراهنة . ومن هذا القبيل ما حدث فى الدراسة التى أجراها جولدمان على الرواية . فهو قد حاول أن يعلل تحول بناء الشكل الروائى (إختفاء البطل الفرد) إبتداء من القرن التاسع عشر حتى عصرنا عن طريق تغيير البنية الإقتصادية فى المجتمع الحديث ، فالمؤسسات الإقتصادية فى المجتمع الصناعى قد دفعت الفرد إلى الإهتمام بصفة أساسية بجزئيات الحياة اليومية . ومعنى هذا أنه قد إستطاع إيجاد علاقة ذات دلالة بين بنية الشكل الروائى وبنية البيئة الإجتماعية .

ونقطة البدء فى تلك الدراسة كانت المشاهدة الكلية لظاهرة التحول الروائى وغيرها من الظواهر (إجتماعية وإقتصادية) ثم محاولة تكوين فروض عاملة ، أهمها ذلك الفرض القائل بوجود تشابه بين تحول البنيات الإقتصادية ، الإجتماعية والبنيات الفنية للرواية الحديثة ، ثم محاولة إختبار هذه الفروض بواسطة التحليل الأمبريقى .

ومن هذا القبيل أيضاً دراسة جاك لينهارت . التى عالج فيها تطور البناء الفنى للآثار الروائية عند آلان روب جريبه وعلاقته بالتحولات التى أعترت البنية العامة للمجتمع الفرنسى المعاصر . وكذلك دراسة شارل كاستيلا عن الرؤية الإجتماعية عند موبسان ، فقد رأى أن فقدان الشخصيات لعنصر الأصالة ، وإستعارتها من العالم الخارجى مقوماتها الأساسية ، يرجع إلى تطور الأيديولوجية البرجوازية فى أواخر القرن التاسع عشر . ومن ذلك يتبين لنا أن الخطوة الأولى فى المنهج الحديث ، تعتمد على تكوين فكرة عامة عن جملة العناصر التى أسهمت فى تكوين الظاهرة ، كالخصائص العامة للتيارات الإجتماعية وعلاقة هذا بالتيارات الفنية والنفسية ، وعلى هذا الأساس نتوصل إلى تفسير الظواهر الأدبية أو الثقافية .

وخلصة القول ، أن النزعة التكاملية قد بدأت تسود فى مجال الدراسات الأدبية ، وهذا لا يعنى أن الميدان أصبح يخلو من محاولات تغلب عليها النزعة التحليلية التجزئية ومن هذا القبيل نقاد الأدب التقليديون الذين لم يزدوا على أن جزءوا الأثر الأدبى إلى وحدات متعددة ، أعنى القائلون بالتقسيم التقليدى إلى شكل ومضمون .

- 2 -

المراجع

- 1 - Brunetiere, F., Revolution des genres, Paris, 1890.
- 2 - Monrot, P., la critique litteraire en france, Paris, 1960.
- 3 - Spitzer, M., Method of interpretation literature northampton, 1955.
- 4 - Tain, H., Histoire de la litterature anglaise, Paris, 1940.
- 5 - Saint- beuve, chateaubriand et son groupe litteraire, 1940.
- 6 - Saint- beuve, Portraits litteraire, Paris, 1839.